أسلوب القسَم الظاهر وأثره في بناء النص القرآني
سورة العاديات... أنموذجا

المدرس المساعد أفراح ذياب صالح*

المقدمة

أسلوب القَسَم من الأساليب التي كثر ورودها في القرآن الكريم، فتناولته أقلام عدة، من النقاد والبلاغيين والنحويين، وأثروا المكتبة البلاغية والمكتبة النحوية بالكتب والبحوث المتعلقة بهذا الأسلوب البليغ.

تحدثوا عن معنى القسم وحدّه ، وفصّلوا القول في أركانه وتناولوا الأقسام التي جاء بها القرآن الكريم، ودرسوا أغراض القسم البلاغية ، وعلى هذا دارت سائر الكتب التي تناولت القسم بالبحث والدراسة ، وقد قرأت الكثير منها ، غير أن سؤالاً واحداً بقي يتردد في ذهني كلما مررت على السور القرآنية التي تبدأ بالقسم الظاهر(١) وهي كثيرة منها: الصافات والذاريات والطور والنجم والنازعات والفجر والليل والشمس والضحى إلى غيرها من السور التي بدِئت بقسم ظاهر، والسؤال هو : لِمَ جاء هذا القسم هنا وجاء الآخر هناك ؟ لم بدأ سبحانه سورة الليل بالقسم الظاهر : { والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى } الليل ١ – ٣، في حين بدأ سورة الضحى بالقسم الظاهر : {والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك وما قلى } الضحى ١-٣ ؟

ولو أبدلنا هذا مكان ذاك ما دام القسمان يشتركان في دلالة واحدة، هي الدلالة الزمنية فضلاً عن اشتراكهما في بنية تركيبية متشابهة وهي بنية التقابل، مع وجود الشرط غير الجازم ،ما التأثير الذي سيحدث ليس في جواب القسم فحسب، بل في بنية السورة كاملة على مستوى الدلالة والإيقاع والتركيب ؟، ولا بد من حدوث هذا التأثير ، فالقرآن الكريم معجز بطريقة نظمه لم يأت بلفظة إلا في مكانها المناسب ، بل أن المناسبة(٢) بين لفظة وأخرى وآية وأخرى وسورة وأخرى ، هي من سمات أسلوب القرآن العظيم ، لكنه سؤال يفرض نفسه للبحث عن هذا التأثير لاسيما في السور التي تشابهت فيها بنية القسم . فإذا ما نظرنا إلى السور الآتية:-

الصافات : { والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا } الصافات ١- ٣
والذاريات : { والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا } الذاريات ١-٣
والنازعات : {والنازعات غرقا ،والناشطات نشطا،والسابحات سبحا} النازعات ١-٣
والعاديات : {والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ،فالمغيرات صبحا} العاديات ١-٣

وجدناها قد اشتركت في بنية تركيبية واحدة وبنية إيقاعية واحدة غير أنها اختلفت في الدلالة ليناسب كل قسم جوابه، ولكن كيف ناسب كل قسم مع جوابه سياق السورة التي افتتحت به حتى لا يمكن استبدال واحد مكان الآخر.

لم أجد فيما قرأت جواباً شافياً لهذا السؤال ، إذ لم تتعد الكثير من الدراسات التي تناولت القسم علاقة المقسَم به بجواب القسم(٣) ولم تذهب في عمق النص القرآني لتتناول علاقته ببقية أجزاء السورة.

حتى وقع بين يدي بحث تحت عنوان (بنية التقابل وأثرها في توليد النص القرآني - سورة الليل أنموذجا -) تناول فيه الباحث البنى التقابلية في سورة الليل ، وبما أن البنية الأولى قائمة على أسلوب القسم وهي قوله تعالى: { والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى } الليل ١-٢ ، لم يفت الباحث بعد ذكره

---

* جامعة بغداد - مركز الدراسات الدولية .

(١) القسَم نوعان: مضمر وظاهر ، فالأول هو القسَم المحذوف ، المدلول عليه بجوابه المقرون باللام كقوله تعالى : (لتبلون في أموالكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) آل عمران / ١٨٦ ، أما الثاني فهو القسم الظاهر، وهو الملفوظ الذي يستدل عليه بحرف من حروف القسم أو بلفظ من ألفاظه . ينظر معاني النحو : فاضل السامرائي ،ج ٤ص١٣٧

(٢) المناسبة في اللغة : " المشاكلة والمقاربة ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه " . الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، ج ٢ ص ١٠٨

(٣) مثال ذلك ما ذكره السيوطي مبينا التلاؤم بين المقسم به (الضحى) وبين جوابه (ما ودعك ربك وما قلى) بقوله : "وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل ، المقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه " الإتقان في علوم القرآن ج٢ / ص ١٣٥

أبعاد هذه البنية التقابلية بين (الليل - النهار) و (يغشى - تجلى)، أن يلتفت إلى أن " البنية التقابلية وما أنتجته من أبعاد تفسر لنا استخدام النص أسلوب القسم "[١] وقد انطلق من وظيفة القسم بوصفها رسالة بين المرسل والمرسل إليه ليخرج بنتيجة مفادها أن القسم قد وظف في السورة ليكون قاعدة دلالية (زمنية – حركية) تبنى عليها سائر دلالات البنى التقابلية للسورة .

أجاب هذا الاستنتاج عن الكثير من التساؤلات التي تدور في رأسي حول أسلوب القسم الظاهر حتى هُيئ لي أن القسم أشبه بنواة في خلية لا يمكن الاستغناء عنها ولا يمكن استبدالها غيرها بها، ورحت أفتش في بقية السور التي تبدأ بالقسم الظاهر عن مصداقية هذه العلاقة بين القسم وبين مستويات السورة جميعها وفيما إذا كان القسم سيشكل بؤرة النص كما شكل في سورة الليل ، ولكي لا يكون بحثي تكراراً لجهد الدكتور فايز القرعان ، ابتعدت عن السور التي تقوم على بُنى تقابلية ووقع اختياري على سورة العاديات ، لأنني وجدت بقية السور تستنفد دراسة أطول لا يسعها بحث مثل بحثي هذا لكثرة الأنساق التكوينية فيها .

أما منهج البحث فقام على افتراض (نواة دلالية) لسورة العاديات ، وهذه النواة بلا شك ليست بؤرة حقيقية ، بل بؤرة قرائية ارتسمت في ذهني بعد قراءتي السورة أكثر من مرة وبعد كشف دلالات ألفاظها كلها ،ثم جمع الخيوط حول هذه البؤرة ، يعينني على ذلك دراسة المستويين التركيبي والدلالي فضلاً عن المستوى الإيقاعي للسورة حتى تكتمل عناصر السورة بكل أجزائها وتلتف حول هذه النواة لتشكل خلية متجانسة ويظهر بوضوح مكان القسم منها .

وعلى وفق هذا التصور جاء البحث مقسماً على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: القسم وأثره في المستوى التركيبي لسورة العاديات .

المبحث الثاني : القسم وأثره في المستوى الدلالي لسورة العاديات .

المبحث الثالث: القسم وأثره في المستوى الإيقاعي لسورة العاديات .

المبحث الأول:

القسم الظاهر وأثره في المستوى التركيبي لسورة العاديا ت :

تتألف سورة العاديات من ثلاثة أنساق تكوينية وخاتمة ، يمكننا أن نكتبها على التوالي كالآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

{والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ،فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا } ١-٥

{ إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد } ٦-٨

{ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصّل ما في الصدور } ٩-١٠

{ إن ربهم بهم يومئذ لخبير } ١١

وسنجري تحليلا لتركيباتها البنائية على النحو الآتي .

النسق الأول:

يتكون هذا النسق من جملة (المُقسَم به) المتمثلة في قوله تعالى :{ والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا } ويمثل المشهد الأول من مشاهد سورة العاديات، إذ تبدأ منه حركة النص ، فقد افتتحت السورة بحرف القسم - الواو – (والعاديات) لتحمل رسالة تنبيهه بالاستماع إلى أمر مهم جاء من أجله أسلوب القسم ، وتصور الحركة الأولى كلمة (العاديات) بما تحمله من معان ، ثم تأخذ حركة النص بالنمو مع توالي جمل المقسم به ، وهي جمل متوازية حملت كل واحدة منها دالة مهدت للأخرى واشتركت معها بمستوى تركيبي واحد فضلاً عن اشتراكها بمستوى دلالي واحد على سبيل (إيراد الملائم) .

ونقصد بالجمل المتوازية هنا : الجمل التي تقوم على تقطيع متساو ، تتفق فيه بالبناء النحوي اتفاقا تاما، سواء اتفقت هذه الجمل في الدلالة أم لم تتفق ، فالمهم هو التطابق التام في البناء النحوي للجمل

---

[١] بنية التقابل وأثرها في توليد النص القرآني - سورة الليل أنموذجا - د.فايز القرعان ، جامعة اليرموك- إربد – الأردن ،والبحث منشور على الموقع الإلكتروني : www.odaba sham.net

المتوازية(١) ويشترط لهذا التوازي أيضا التوالي ،" فإذا توازت جملتان غير متواليتين فلا يدخل هذا في نطاق هذه الظاهرة لوجود فاصل شكلي بين الجمل المتوازية ، وهذا الفاصل الشكلي يفقد النص التوازي المقصود ، ويفقده كذلك كثيراً من الأبعاد الدلالية المقصودة من هذا التوازي"(٢)

ولا نريد هنا أن نخوض في هذه الظاهرة التي امتاز بها أسلوب القرآن الكريم(٣) ، فليس هذا مدار بحثنا،ولكننا سنجعل من التوازي معياراً نوزّع على أساسه جمل النسق الأول وعلى النحو الآتي :

١- جمل اسمية إنشائية متوازية :

افتتحت سورة العاديات بثلاث جمل اسمية إنشائية متوازية ومتناسقة تناسقاً تاماً من حيث التركيب والدلالة ممهدة بذلك لرسالة سماوية عظيمة تسترعي الوقوف والتأمل ، أدى أسلوب القسم دوراً كبيراً في إيصالها ،إذ كان لوجوده في مطلع السورة أغراض بلاغية ، أولها أن القسَم ضرب من الأسلوب الإنشائي لا الخبري والأساليب الإنشائية كلها أكثر اجتذاباً من الأساليب الخبرية ،لأن عنصر المفاجأة متوفر فيها ، وثانيها أن القسم يتسم بالإيجاز، فهو قصير الألفاظ كثيف المعاني ، مما يجعل منه عنصر تشويق للتواصل مع النص ومن ثمّ تأدية الغرض المراد منه.

ثلاث جمل ابتدأت أولاها بحرف القسم – الواو- وارتبطت مع بعضها بحرف العطف الفاء لتكون جملة المُقسَم به على النحو الآتي :

و ... العاديات ـ ضبحا
ف ... الموريات ـ قدحا
ف ... المغيرات ـ صبحا

نلاحظ هنا ثلاثة أسماء متناسقة تركيباً وإيقاعاً ودلالة جرّت بحرف القسم واتبعت بثلاثة مصادر متناسقة أيضاً تركيباً وإيقاعاً لتحمل كل جملة دالين : دال (اسم الفاعل المجرور) ودال (المصدر) ويرتبط كل دال من هذين الدالين بعلاقة توازٍ مع دوال الجمل الأخرى .

فالدال (العاديات) وهو وصف للخيل التي تعدو(٤) يتوازى توازياً تاماً مع الدالين (الموريات - المغيرات) اللذين يشيران إلى المقسم به نفسه (الخيل أو الإبل) أما الدال (ضبحا) الذي يعني "صوت أنفاس الخيل إذا عدت "(٥) فقد مثل الفاصلة الأفقية لجملة القسم ، وأعطى الوصف بعداً دلالياً وصوتياً وهو دال يتوازى توازياً تاماً مع الدالين (قدحا ـ صبحا) .

وفي استخدام هذه التركيبة من (اسم الفاعل + المصدر) إغراض بلاغية - دلالية وصوتية – دلالية لأن اسم الفاعل وإن كان في معنى الفعل إلا أنه يحمل دلالة الثبوت بحكم دلالة الاسم ، وهذا ما لا يحمله الفعل،فقد جاء في التفسير الكبير:"إن اسم الفاعل يدل في الكثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه ...فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك "(٦) وهذه الدلالة من الثبات والرسوخ تناسب الصفة المراد القسم بها كما سيتبين لنا لاحقاً. وصوتية لأن إيقاع اسم الفاعل يختلف تماماً عن إيقاع الفعل ،ولهذا الإيقاع ضرورة كما سنرى في تجسيد صورة المقسم به .

أما صيغة المصدر فتحمل الصفة النحوية : (النصب) ، وهي صفة " تمتاز بأنها وصف متأخر ـ قياسا بالرفع ـ وهي تلحق الاسم وهو أيضا متأخر في الخطاب أو الجملة قياسا بالفعل أو الحرف ، وتنطوي تحت هذا التشكل الإعرابي معظم القضايا الإعرابية (المفاعيل والتوابع) وأن هذه الصفة الإعرابية التي تلحق الاسم تجعل بنية الفاصلة أكثر استقراراً تركيبياً ودلالياً "(٧) وسنرى أهمية هذا الاستقرار عند تحليلنا للمستوى الإيقاعي للسورة .

٢- جمل فعلية خبرية متوازية :

---

(١) الجمل المتوازية عند طه حسين- دراسة في أحلام شهرزاد - رجب عبد الجواد ، مجلة علوم اللغة : المجلد٣، العدد :٤ /٢٠٠٠ص٢٣١

(٢) الجمل المتوازية في ديوان أبي القاسم الشابي (دراسة نحوية دلالية) د.محمود محمد سليمان علي الجعيدي- جامعة المنصورة - بحث منشور على الموقع الالكتروني : www.tunisia-sat.com

(٣) يراجع في هذا : التوازي في القرآن الكريم – وداد مكاوي حمودي – أطروحة دكتوراه – جامعة بغداد – كلية التربية للبنات ٢٠٠١م .

(٤) ينظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري ج٢ ص ١٣٧٢

(٥) المصدر السابق نفسه ج٢ ص ١٣٧٢

(٦) التفسير الكبير : الفخر الرازي ج ٢٥ص٢٩ وينظر معاني النحو : د.فاضل السامرائي ج٣ ص١٥٢.

(٧) التوازي في القرآن الكريم ،وداد مكاوي حمودي الشمري (أطروحة دكتوراه –جامعة بغداد) ص ١٥٠ .

ما زلنا مع النسق الأول نفسه ، ولكن تقتضي بلاغة الأسلوب القرآني وخصوصيته تغييراً في التركيب لتتحول جملة القسم من اسمية إلى فعلية في آيتين تختتم بهما جملة القسم وهما :

فأثَرْنَ بـه نقعا فوسطنَ به جمعا

نلاحظ بوضوح تغير مجرى جملة القسم رغم وجود الرابط نفسه (الفاء) فالتركيب النحوي لم يأت كما هو متوقع له أن يكون :(اسم فاعل + مصدر) كما في الجمل السابقة كأن يكون :

فالمثيرات نقعا فالموسطات جمعا

فجملة القسم لم تستمر على هذا النمط من الجمل الاسمية بل أن تغييراً بديعاً حصل بالانتقال إلى جمل فعلية ، صاحبه تغيير في روي المصدر من الحاء إلى العين (نقعا – جمعا) .

وقد وقف المفسرون عند عطف الفعل على الاسم هنا فأول الزمخشري الجمل الاسمية بجمل فعلية ، لأن المعنى عنده : "واللات عدون فأورين فأغرن فأثرن "(١) وتابعه الرازي في تفسيره الكبير(٢)

وكذا جاء في الميزان للطباطبائي قوله :" لا بأس بعطف (فأثرن) وهو فعل على ما قبله وهو صفة لأنه اسم فاعل وهو في معنى الفعل،كأنه قيل: اقسم باللات عدون فأورين فأغرن فأثرن"(٣)

كل من هؤلاء المفسرين نظر إلى الآية من زاوية نحوية فسوّغوا عطف الفعل على الاسم ، غير أن القرآن الكريم إنما يستعمل بنية الكلمة استعمالا في غاية الدقة والجمال ،فلا يخلو تعبير من غرض بلاغي ،فلا بد أن يكون لهذا التغيير في الصيغة قصد دلالي ينطلق من خاصية الاسم والفعل(٤) ولعلنا هنا نستأنس برأي ابن عاشور في هذا التغير إذ قال : " وإنما اختير صيغة الفاعل في الأوصاف الثلاث الأول واختير الفعل في الأخيرين ، لأن العدو والايراء والإغارة من الصفات الذاتية لها بخلاف النقع وتوسط الجمع فانه من عوارض خاصة في أوقات خاصة فعبر عنه بالفعل الدال على تجدد الحصول "(٥) .

والجملتان الفعليتان متوازيتان توازيا تاما على وفق التركيب النحوي الآتي :

حرف العطف + فعل ماضٍ مبني للسكون + جار ومجرور + اسم منصوب(٦) .

ف أثرن به نقعا
ف وسطن به جمعا

نلاحظ بوضوح انتهاء الفاصلة بالصفة الإعرابية ذاتها (النصب) ليعطي دلالة الاستقرار التي اشرنا إليها .ويؤدي حرف العطف (الفاء) دوراً في ربط الجملتين الفعليتين بالجمل الاسمية السابقة ، وقد أعطى دلالة التوالي ، فالفاء " عاطفة لصفات الموصوف الواحد للدلالة على حصولها متعاقبة متتالية "(٧) مما يعطي المشهد حركة متواصلة بلا انقطاع أو توقف .

.كما إن التواصل حاصل بفضل عودة الضمير في (به) الذي تكرر في الجملتين إلى ما سبق وهو الصبح(٨)

بهذا التلاحم والتوازي في التركيب ، بهذا الاستقرار الذي أفادته صفة النصب النحوية ، انتهت جملة القسم وكانت نسقاً واحداً شكلت النواة الدلالية للسورة التي ستتجمع حولها دالات لا يمكن أن يكتمل نموها إلا بها ؛ أما تركيبا فكانت هذه الجملة ممهدة بطبيعتها لما بعدها ، فطبيعة التركيب النحوي للنسق الأول (جملة القسم) طبيعة مفتقرة إلى ما يكملها وهي جملة (جواب القسم) التي تمثلت بالنسق الثاني ، وسنجد أن هذا الأخير يرتبط بدوره بالنسق الثالث ليكتمل ترابط الأنساق الثلاثة تركيبا وإيقاعا ودلالة .

النسق الثاني :

---

(١) الكشاف ، ج٢ ص ١٣٧٢

(٢) ينظر التفسير الكبير،فخر الدين الرازي ج٣٢ ص٦٣

(٣) الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطبا طبائي ج٢٠ص٣١٨

(٤) ينظر:التعبير القرآني ، فاضل السامرائي ص٢٢

(٥) التحرير والتنوير ، ابن عاشور ص ٣٣٠

(٦) نصب نقعا على المفعولية في حين نصب جمعا على الظرف ، ينظر إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم. ابن خالوية ص١٥٦

(٧) التحرير والتنوير ص٣٢٩

(٨) يذكر الرازي ثلاثة أقوال في عودة الضمير، الأول : قول الفراء انه عائد إلى المكان الذي وقعت فيه الإغارة ، والثاني والثاني إلى زمان الإغارة وهو صبحا ، والثالث قول الكسائي أنه عائد إلى العدو ، ينظر التفسير الكبير ج٣٢ ص٦٣

وهو جملة جواب القسم ، المتمثلة في قوله تعالى **{ إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد }**
ثلاث جمل اسمية متوازية أيضا ، جمعتها دالات رسمت مشهدا آخر قد يبدو مختلفا عن المشهد الأول - مشهد الخيل العادية والمغيرة – غير أن دراسة متأملة ستكشف عمق الترابط بين المشهدين فضلاً عن عمق الفكرة القرآنية وراء ذلك .
إن التكرار هو الذي ميز هذا النسق ، فجملة جواب القسم " تشتغل بتواز تكراري كما تشتغل ببناء تركيبي واحد متواز في الجمل الثلاث كل بمفرده"(١) كما في الشكل الآتي :

	حرف التوكيد (إن) +	**اسم إن +**	**+ شبه جملة +**	**خبر إن مقترن بلام التوكيد المتزحلقة**
	إن	الإنسان	لربـه	لكنود
و	إنــــــ	ــــــه	على ذلك	لشهيد
و	إنــــــ	ــــــه	لحب الخير	لشديد

إن أهم ما يلفت النظر في هذا النسق هو أسلوب التوكيد ولذا ارتأى بعضهم أن يسمي هذه الجملة (جملة التوكيد) (٢) إذ استخدم النص القرآني أسلوبين من أساليب التوكيد ، الأول إن المشبهة بالفعل في في بداية كل جملة من النسق الثاني ، والثاني هو اللام المتزحلقة في نهاية كل جملة منه مما يكسب جواب القسم قوة في الدلالة وعمقا في المعنى إذ يوحي بأهمية المقسم عليه وعظمته. وان كان النحاة قد ألزموا دخول إن على الجملة الاسمية من المبتدأ والخبر إذا كانت جوابا للقسم(٣) فإن لدخولها فائدة بلاغية لطيفة يذكرها الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز إذ يقول :" انك ترى الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغاً واحداً ، وكأن احدهما قد سبك في الآخر "(٤) . فهذا ما يزيد ترابط النسقين مع بعضهما .
وبذا يكون النسقان الأول والثاني قد شكلا أركان القسم الثلاث : أداة القسم والمقسم به و المقسم عليه فكانا من الناحية التركيبية جملة واحدة وسنرى ارتباطهما دلاليا عند دراستنا للمستوى الدلالي .

النسق الثالث :
{ أفلا يعلم إذا بُعثِرَ ما في القبور ، وحصّل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير }
بالنسقين الأول والثاني ينتهي القسم وجوابه ، ولكن الارتباط بالسورة مازال قائما ، لأن المقسم عليه حاضر في هذا النسق ، فالقرآن الكريم لا يترك أمر هذا الكنود دون معالجة ودون إن يحيطه بإطار تعليمي توجيهي ، فيأتي النسق الثالث مفتتحا باستفهام توبيخي(٥) ينكر على الإنسان جهله بحقيقتين دامغتين كان الأجدر إن تردعانه وتردانه عن جحوده وحبه الشديد للمال ،على النحو الآتي:
أفلا يعلم إذا بُعثِرَ ما في القبور ← حقيقة بعثرة القبور (إشارة إلى يوم القيامة)
وحصّل ما في الصدور ← حقيقة كشف الأعمال (يوم تبلى السرائر)
نلاحظ بوضوح ارتباط هذا النسق، بالنسق السابق (جواب القسم) تركيبيا " من خلال الإحالة الضمائرية إلى الفاعل المعنوي (الإنسان) المستتر في (يعلم)"(٦) .كما نلاحظ التوازي التام بين الآيتين بهذه الصورة التركيبية :

	إذا بعثر	ما	في القبور
	↓	↓	↓
أفلا يعلم	**فعل ماض مبني للمجهول**	**+ اسم موصول +**	**شبه جـملة (جار ومجرور)**
	↑	↑	↑
	و حصّل	ما	في الصدور

---

(١) التوازي في القرآن الكريم ص ٣٤
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٥١
(٣) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ص ٢١٤
(٤) المصدر السابق ص٢٠٩
(٥) قال ابن خالوية (والألف ألف التوبيخ في لفظ الاستفهام) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، ص١٥٨

(٦) التوازي في القرآن الكريم ص١٥٢

↓
عاطفة أغنت عن تكرار الظرف

لقد وفّر حرف (الفاء) في (أفلا) اشتراك الآيتين بالاستفهام الإنكاري التعجبي الذي " تفرع على الصفات المذمومة المذكورة آنفا ، فالفاء عاطفة الجملة للتفريع والمقصود إنكار عدم علمه ذلك والتعجب من عدم علمه بعاقبة سوء فعله "[١] ، كما وفر حرف العطف (الواو) اشتراكها بالظرف (إذا) وهو ظرف مجرد عن معنى الشرط هنا فلا تحتاج إلى جواب[٢] .
فعلى هذا لا يمكننا عد الآية التي تلي هذا التركيب جوابا للشرط إذا علمنا انتفاء الشرط هنا وان الظرف (إذا) " لا يعمل فيه خبير لأن ما بعد (إن) لا يعمل فيما قبلها "[٣]
ومن ثمّ لا يمكننا الأخذ برأي من قال أن الآية الثالثة ويقصد بها قوله تعالى "إن ربهم بهم يومئذ لخبير" - وهي خاتمة السورة –" ترتبط بالأولى والثانية لافتقارهما التركيبي والدلالي لها، إذ تمثل جواب الشرط"[٤] لكن هذا لا يعني أن الارتباط غير موجود ، فالارتباط حاصل بشكل فني بديع كما سنرى في تحليلنا لخاتمة السورة .

خاتمة السورة :

{ إن ربهم بهم يومئذ لخبير }

لو أمعنا النظر في الآية الأخيرة لوجدناها جاءت على وفق التركيبة النحوية نفسها التي جاء بها النسق الثاني (تركيبة التوكيد) والتي ضمت ثلاثة أخبار، وكأن هذه الآية هي الخبر المؤكد الرابع وإن كانت لا تدخل في جواب القسم ، على النحو الآتي :

إن	**ربهم**	**بهم**	**(يومئذ)**	**لخبير**
حرف توكيد	اسم إن	شبه جملة		خبر إن مقترن بلام التوكيد

وكأنه نسق واحد ، اعترضته جملة استنكارية تنبيهيه لهذا الكنود ، فإذا ما عرفنا أن المعني بالضمير الهاء في (ربهم - بهم) هو الإنسان نفسه[٥] استطعنا أن نعيد كتابة النسقين على الشكل الآتي :

إن الإنسان لربه لكنود
و إن ــــه ـــــ على ذلك ـــــ لشهيد
و إن ــــه ـــــ لحب الخير ـــ لشديد (الإنسان)
↑ إذا بعثر ما في القبور
↑ ↑ ↑ ↑ ← أفلا يعلم وحصل ما في الصدور
إن ربهم بهم (يومئذ) لخبير

ولا يفوتنا إن ننظر إلى الفاصلة القرآنية وكيف تغير حرف المد (الواو) إلى (الياء) ليتناسق مع تركيبة التوكيد السابقة وسوف نفصل القول في ذلك عند دراستنا للمستوى الصوتي .
وبما إن النسق الثاني قد ارتبط بالأول من خلال أسلوب القسم تكون الآية الأخيرة من سورة العاديات قد شكلت بتركيبتها النحوية رابطا تكوينيا بين الأول والثالث وتصبح الأنساق الثلاثة السابقة كلها وحدة واحدة يجمعها أسلوب القسم ذاته .

الناتج التركيبي لسورة العاديات :

انطلاقاً من الغرض الرئيس للقسم وهو: توكيد الخبر وتحقيقه[١] أو هو كما يقول ابن يعيش :

---

[١] التحرير والتنوير ، ص٣٣٣
[٢] جاء في إعراب إذا (حرف وقت غير واجب) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٥٨
[٣] الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ج٢ ص١١١
[٤] التوازي في القرآن الكريم . ص١٥٢
[٥] ينظر التفسير الكبيرج٣٢ص٦٦

"توكيد ما يقسم عليه من نفي وإثبات"(٢) ونظرة إلى موقع هذا الخبر (جواب القسم) من السورة استطعنا أن نتبين أثر أسلوب القسم في ربط أجزاء السورة تركيبياً ، وإذا كان الدكتور محمد عابد الجابري قد رأى في كتابه (فهم القرآن الحكيم) " أن موضوع السورة ومركز ثقلها هما قوله تعالى:{إن الإنسان لربه لكنود } فعلى هذه الآية تنبني باقي آيات السورة "(٣) من خلال نظرته للسورة ككل ، فإننا من خلال دراستنا التحليلية السابقة لأجزاء السورة كاملة استطعنا أن نجد مصداق كلامه، إذ وجدنا أن جواب القسم قد شكل بؤرة السورة ومركزها في البناء التركيبي ،ويمكننا أن نوضح ذلك بالمخطط الآتي :

علاقة تأكيد علاقة إنكار
جملة القسم ← جملة جواب القسم → جملة الاستفهام
(النسق الأول) (النسق الثاني) (النسق الثالث)

↑علاقة عائدية الضمير

الخاتمة

المبحث الثاني

القسم الظاهر وأثره في المستوى الدلالي لسورة العاديات

إن دراسة المستوى التركيبي للسورة لا يمكن لها وحدها إن توضح لنا ما نروم الكشف عنه في بحثنا هذا، لأن تلك الدراسة لم تكن إلا " تحركاً في المستوى السطحي من بنية النص ووصفاً للبنية من الناحية اللغوية وتشكيلها في الأبنية التركيبية الأساسية في السياق الكلي"(٤) ولذا كان لزاما علينا الانتقال إلى المستوى العميق وهو المستوى الدلالي ، إذ يولد كل نسق من الأنساق التركيبية السابقة دلالة خاصة يشدها لبعضها رابط عام يمثل المعنى الكلي للسورة .

وإنما قمنا بتقديم المستوى التركيبي لأن معرفة الأنساق التركيبية للنص أمر ضروري لفهم دلالات ذلك النص إذ أن " التشكيل الدلالي في النص منوط بكيفية تشكل دالات البنية التركيبية داخله، في الوقت الذي يكون فيه تكوّن النمط الأسلوبي منوطا بالمعنى الذي يشكل النص"(٥) .

يقول الدكتور محمد عبد المطلب بهذا الصدد " إن طريقة دراسة الدلالات لا تمتلك وسائل محددة لإنتاج دلالة محددة وإنما الأنساق هي التي تخلق دلالاتها نتيجة لتحليل علاقاتها وصلتها بالواقع ، أي أن الملمح الإشاري للغة لا بد أن يلعب دوراً بارزاً في خلق الدلالة وإنتاجها ومن ثم إظهار الخطاب الأدبي في صورته التي تقربه للفهم"(٦) وبهذا أصبحت العلاقة بين المستويين التركيبي والدلالي جلية واضحة وصارت ثمة معان عميقة تختفي وراء المستوى التركيبي السطحي ستكشفها لنا دراستنا للمستوى الدلالي العميق .

وللوصول إلى تلك المعاني العميقة لا بد لنا من تحليل معاني الدالات تحليلاً معجمياً أولا ثم سياقياً ثانيا مسترشدين بمعاجم اللغة والتفاسير القرآنية ومن ثم الربط بين الدالات وما أنتجته من معان لتوليد الدلالة النهائية للسورة ، ومعلوم أن التعامل مع النص القرآني يختلف عن تعاملنا مع أي نص أدبي نثري أو شعري في التحليل ، ذلك أننا ملزمون هنا بالعودة إلى النصوص المتواترة عن الصحابة والتابعين في تفسير الآيات الكريمة ، لكن مع ذلك يبقى الرجوع إلى الدلالات المعجمية مهماً في تسليط الضوء على خصوصية استخدام هذه الكلمة بدل غيرها من الكلمات كما أنه يكشف أبعاداً دلالية خفية قد تصدق في تفسير المعنى .

ولخصوصية النص القرآني تلك ، فضّلنا استخدام تسمية " الدلالة الافتراضية " على ما سنورده من دلالات الأنساق وإن كنا مستندين إلى معاجم اللغة وكتب التفاسير، وأقول دلالة افتراضية ،لأن الدلالة إنما هي " قضية نفسانية ناجمة عن التداعيات التي تحدثها الكلمة في النفس ، فهي مرتبطة إذن بأثر تلك

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ، ابن قيم الجوزية ص٢

(٢) شرح المفصل ، ابن يعيش ج٩ص٩٠

(٣) فهم القرآن الحكيم ، د.محمد عابد الجابري ص٦٣

(٤) بنية التقابل وأثرها في توليد دلالة النص القرآني يحث سبق ذكره

(٥) المصدر السابق نفسه

(٦) بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، د.محمد عبد المطلب،ص١٥١

الكلمة"(١) وهي غير المعنى إذ فرقت البنيوية الاصطلاحية بين مفهومي (المعنى) و(الدلالة)عن بعض :فإذا كانت الدلالة ترتبط بالأثر الحاصل في الذهن ، جرّاء تلقي إشارة ما ، فإن المعنى يمثل آلية ذلك التلقي خارج الحدود الفردية .(٢)

أولاً : دلالات النسق الأول :

إن التأمل في دلالات (جملة القسم) يكشف لنا عن الروابط أو الخيوط الدلالية بين القسم وجوابه من جهة وبينه وبين بقية أجزاء السورة من جهة أخرى فقد ضمت جملة المقسم به ثلاثة أسماء شملت أوصافاً لواحد من اثنين :

الأول : ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وابن مسعود إنها الإبل .

والثاني : قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ،إنها الخيل .

فكتب التفاسير تروي لنا رواية عن ابن عباس أنه كان يفسر العاديات بالخيل حيث تغير في سبيل الله فيضعون طعامهم ويورون نارهم فبلغ ذلك الإمام علي عليه السلام فأنكر على ابن عباس قوله وقال إنما هي الإبل تضبح من عرفة إلى المزدلفة ومن مزدلفة إلى منى ، فرجع ابن عباس عن قوله(٣)

وسواء أكان الموصوف خيلاً أم إبلاً تبقى هذه الأوصاف تحمل الصفات ذاتها التي أقسم سبحانه بها لأن المقصود من القسم ليس عين المُقسَم به وهو الخيل أو الإبل ، إنما أراد سبحانه - والله أعلم –صفاتها ، لذا لم يقل مثلاً (والخيل) ولا (والإبل) مثلما أقسم بالطور والتين والشمس إلى غير ذلك من الأقسام الصريحة ، بل قال سبحانه :(والعاديات – فالموريات – فالمغيرات) لأن الدلالات التي تحملها هذه الصفات ذات اثر كبير في الدلالة الكلية للسورة ، إذ ستبنى عليها دلالات بقية الأنساق .وهذا ما سنفصل الحديث عنه فيما يأتي :

١- دلالة التجاوز وتخطي الحدود بتعب وإجهاد

قال تعالى (والعاديات ضبحا) بهذا الاسم اختار سبحانه أن يبدأ قسمه (العاديات) وهو وصف مشتق : "من العَدْوِ وهو الجري السريع "(٤) لكن هذا العَدْوَ وإن كان يحمل دلالة السرعة فأنه يحمل أيضا دلالة التجاوز فقد جاء في معجم مقاييس اللغة مادة (عدو) : "العين والدال والحرف المعتل أصل واحد صحيح يرجع إليه الفروع كلها ، وهو يدل على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه "(٥)، "(٥)، وجاء في مختار الصحاح " عداه يعدوه عدواً : جاوزه "(٦) .

ومعنى التجاوز : إنك تتخطى ما يجب ألا تتخطاه وتعبر بذلك الحد الذي يجب أن تقف عنده وتقتصر عليه ، وهو دليل على السرعة الشديدة القصوى ، لذا يوصف بهذا اللفظ الخيل والإبل حين تعدو فتسرع .

لكن الاسم هنا مقترن بدلالة أخرى مجاورة يفرضها الدال (ضَبْحا) وقد أجمع المفسرون على أن معنى الضبح هو صوت يصاحب العدو ، قال الزمخشري : "والتضبّح : صوت أنفاسها إذا عدَوْنَ"(٧) وهو "ليس بصهيل ولا حمحمة "(٨) : إنه " اضطراب الصوت في الحنجرة دون بروزه إلى الفم ، مثل صوت التنفس المعتلي ... والضبح للخيل والإبل صوت تنفسها يعرض لها عند شدة العَدْو"(٩) .

ومن جميل استخدام الدال (ضبحا) هنا هو أنه يحمل دلالة أخرى متناسقة تناسقا تاما مع الدال (العاديات) هذه الدلالة يذكرها ابن منظور نقلاً عن أبي عبيدة يقول : "هو أن يمد الفرس ضبعيه إذا عدا حتى كأنه على الأرض طولاً"(١٠) وكذلك جعل ابن فارس الضبح بمعنى الضبع قال :" وهو في الأصل ضبع ، وذلك أن يمد ضبعيه حتى لا يجد مزيدا "(١١)

---

(١) علم الدلالة ، بييرجيرو ص١١

(٢) علم الدلالة، مصدر سبق ذكره ص١١-١٢

(٣) ينظر الكشاف ج٢ص١٣٧٢-١٣٧٣، التفسير الكبير ج٣٢ص٦١ الجامع لإحكام القرآن ج٢ص١٠٥ تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج٤ص٥٤١ ، أنوار التنزيل وإسرار التأويل ، البيضاوي ص١١٦٧

(٤) الميزان في تفسير القرآن ج ٢٠ص٣١٦

(٥) معجم مقاييس اللغة ، احمد بن فارس ، مادة (عدو)

(٦) مختار الصحاح مادة (عدا)

(٧) الكشاف ج٢ص١٣٧٢

(٨) التفسير الكبير ج٣٢ص٦٠

(٩) التحرير والتنوير ص٣٢٩

(١٠) لسان العرب مادة (ضبح)

(١١) معجم مقاييس اللغة مادة (ضبح)

ومتى كانت هيئة الخيل بهذا الشكل (مد الضبعين حتى لا مزيد) كان اللفظ الدال على هذه الصورة لا يعادله أي لفظ آخر في تصوير سرعة تلك الخيل .

فإذا أضفنا لهذا المعنى للضبح دلالة جديدة يوردها صاحب متن اللغة وهي : التعب والإجهاد مأخوذة من قولهم " ضبح – ضبحاً الرجل ألقى نفسه في الأرض من كلال وضرب "[١] صار هذا الدال (ضبحا) بصيغته المصدرية المنتهية بألف الإطلاق مع الدال (العاديات) تصويرا لعدو شديد متواصل إذ لا راحة ولا توقف ، عدو تمد فيه الخيل ضبعيها أقصى ما تستطيع ، خيل منطلقة إلى حيث يريد بها راكبها تسابق الريح بعدوها ، تكد وتضبح .

ربما هذه الصورة للخيل وهي منطلقة لا تنثني هي التي دعت مفسراً مثل ابن عربي أو آخر مثل البيضاوي يفسر (العاديات) بأنها وصف (للنفوس) ، فقد جاء في تفسير ابن العربي قوله : "والعاديات : النفوس المجتهدة السائرة في سبيل الله التي تعدو من شدة سيرها ورياضتها وجدها في سعيها كالخيل العادية "[٢]، أما البيضاوي فيقول: "ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كما لهن لهن "[٣].

وإن كنت لا أميل للتفسير الصوفي للقرآن الكريم ، لكني حقا أرى في صورة تلك الخيل صورة للنفوس ، لكنها ليست تلك النفوس المجتهدة التي رآها ابن العربي ، بل أرى صورة لنفس جامحة تجري وراء ملذات الدنيا وشهواتها ، لا يردعها رادع ، نفس أشبه ما تكون بنفس ذاك الكنود الذي تخطى بحبه للمال الحد المقبول ، حتى قال عنه سبحانه إنه (لحب الخير لشديد) نفس تنطبق عليها كل الدلالات التي وجدناها في الدالين (عاديات ، ضبحا) تجاوز وإسراع وكد وإجهاد .

٢- دلالة الإخراج والإظهار

ما زال مشهد الخيل حياً متحركاً ، وما زالت الحركة مستمرة في نمو يكمل رسمها دالان جديدان معطوفان بحرف العطف (الفاء) الذي يفيد التعاقب والتوالي ، وهذه الدلالة هي الإخراج والإظهار يمثلها الدالان(الموريات – قدحا) .

والإيراء: إخراج النار، وأصله من الفعل (وَرِيَ)، يقال وري الزند : خرجت ناره وأوراه غيره إذا استخرج ناره ، كما يستعمل للإخراج المعنوي من قولهم : استوريت فلانا رأياً ،سألته أن يستخرج لي رأيا[٤] فدلالته على الاستخراج واضحة .

أما دلالته على الإظهار فقد جاءت في حديث لعلي عليه السلام ذكره ابن منظور إذ يقول "حتى أوري قبسا لقابس ، أي أظهر نورا لطالب الهدى "[٥]

وهذه الدلالة تتقارب تقاربا كبيراً مع دلالة اللفظة المجاورة ، وهي " قدحا " والقدح :"الضرب بالحجر لاستخراج النار منه ، قال القرطبي :وأصل القدح الاستخراج ،فالخيل تقدح بحوافرها الحجر وذلك من شدة الاصطدام بالحجارة من قوة العدو[٦]

وهذا تفسير على سبيل الحقيقة ، وهناك روايات في تفسير لفظ(الموريات) على سبيل المجاز،يوردها الرازي في تفسيره ، منها على سبيل المثال ، أن الموريات هي الألسنة توري نار العداوة لعظم ما تتكلم به ، أو أنها أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة ، أو هم الجماعة من الغزاة ، إلى غير ذلك من الروايات التي أشار إليها أيضا الطباطبائي في الميزان وقال إنها روايات ضعيفة[٧]. ومهما يكن من أمر تفسير " الموريات " تبقى دلالتا الإخراج و الإظهار الواردة في جملة القسم ، حلقة من الحلقات الدلالية للسورة التي ستتحلق حولها دلالات أخرى حتى تكتمل شبكة العلاقات الدلالية كما سيتبين ذلك لاحقا .

٣- دلالة الإقدام السريع المباغت

صفة أخرى من صفات الخيل العادية ، ومعنى عميق آخر، يجسد هذه الصفة دالان معطوفان بحرف العطف ذاته (الفاء) ليعطي المشهد الحركة المستمرة ، وهذان الدالان هما : (المغيرات – صبحا)

---

[١] معجم متن اللغة مادة (ضبح)

[٢] تفسير ابن عربي ،محي الدين بن عربي، ص٦٩٦

[٣] أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص١١٦٧

[٤] ينظر معجم مقاييس اللغة، مادة (وري)، ولسان العرب مادة (وري)

[٥] لسان العرب مادة (وري) .

[٦] ينظر الجامع لأحكام القرآن ج٢٠ص١٠٧والتحرير والتنوير ص ٣٢٩

[٧] ينظر التفسير الكبير ج٣٢ص٦٢والميزان ج٢٠ص٣٦١

ومادة (غور) في اللغة تدل على "إقدام على أخذ مال قهراً أو حرباً"(١)

والمغيرات اسم فاعل من (أغار) فيقال :" أغار بمعنى هجم على ديار القوم للقتل والنهب"(٢) فالإغارة والغارة " الهجوم على العدو بغتة بالخيل"(٣).
أما دلالته على الإسراع فيوردها الرازي بقوله: " ومعنى الإغارة في اللغة : الإسراع يقال أغار إذا أسرع "(٤).
وبهذا يكون الدال (المغيرات) يحمل دلالة الإقدام السريع المباغت على قوم خصم .
لكن هذه الإغارة مقيدة بزمان وهو الصبح، فهناك الدال (صبحاً) ، فما هي الدلالة التي أفادها هذا الزمان ؟ ولماذا صبحاً ؟
قال القرطبي :" لأن ذلك وقت غفلة الناس"(٥) بمعنى أنه أنسب وقت للمباغتة وكانت العرب إذا أرادت أرادت الإغارة ،سروا ليلاً ،ويأتون العدو صبحا .
ولكننا تتبعنا لفظة الصبح في القرآن الكريم فوجدناها مقترنة بنزول العذاب في أكثر من موضع كما في قوله تعالى في قوم لوط **{ إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب }** هود :٨١ وقوله تعالى : **{فساء صباح المنذرين }** الصافات :١٧٧، ونحن نعلم - كما أخبرنا الله سبحانه في مواضع عدة - أن عذابه إنما ينزل بغتة ، نحو قوله تعالى **{ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة }** الأنعام :٣١ ، أي أن زمان الصبح هو أنسب زمان للمباغتة ولذا اختاره سبحانه وقتاً لنزول العذاب .
فإذا ما اجتمعت اللفظتان جنبا إلى جنب لفظة (المغيرات) بما تحمل من دلالة الهجوم السريع ولفظة (صبحا) التي حملت دلالة المباغتة ،كان هذا التعبير أنسب ما يكون في هذا المقام ، وكأنه تذكير و تنبيه لمن جاء القسم من أجله :(ذلك الكنود ، شديد الحب للمال) ، كما ناسب ذكر يوم البعث . يوم تأتيهم الساعة بغتة وهم في غفلة عنها ، عندئذ تبعثر القبور وتحصل الصدور .

٤- دلالة إثارة جلبة من ارتفاع غبار أو صوت

تتوالى صفات المقسم به، وتتوالى الدلالات مشكلة الخيوط الرابطة بين القسم وبين بقية أنساق السورة ، وقد اختار سبحانه لهذه الصفة الجديدة الصيغة الفعلية ،كما مرّ بنا ، وذلك بقوله:
{فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا }، يذكر ابن فارس في معجمه أن للنقع أصلين صحيحين : "احدهما يدل على استقرار شيء كالمائع في قراره ، والآخر على صوت من الأصوات ... فالنقيع : الصراخ .. ونقَعَ الصوت : ارتفع"(٦) أما ابن منظور فيذكر للنقع معنى آخر وهو: الغبار(٧).
وقد أورد المفسرون كلا المعنيين في تفسير هذه الآية ، قال الزمخشري :" (فأثرن به نقعا) : فهيجن بذلك الوقت غبارا" ثم قال في المعنى الآخر : "أي فهيجن في المغار عليهم صياحا وجلبة"(٨)
وقد أفاد الفعل (أثرْنَ) رسم صورة من الاضطراب ، لأنه من (الإثارة) وهي الهيجان والارتفاع قال ابن عاشور"وأثرن: جعلن النقع ثائرا، أي هائجا، أي متحركا حركة اضطراب غير هدوء والثوران: الارتفاع "(٩)
وهكذا فإن دلالة الجلبة ظاهرة سواء أكان المثار هو الغبار بحركته الهائجة من جرّاء حركة حوافر الخيل، أو هو الصوت العالي بارتفاع صياح النوائح ،فهي جلبة واضطراب تناسب تماما جلبة بعثرة القبور بما يحمله لفظ (بعثرة) من دلالات كما سنرى في النسق الثالث من السورة .
وهناك قراءة أخرى في الفعل (فأثرن) بالتشديد، قال الزمخشري " وقرأ أبو حيوة :فأثّرن بالتشديد ، بمعنى : فأظهرن به غبارا ـ لأن التأثير فيه معنى الإظهار"(١٠) وقد مرت بنا دلالة الإظهار فيما سبق فالتقاطع بين اللفظتين واضح بيّن .

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (غور)
(٢) التحرير والتنوير ص٣٢٩
(٣) الميزان ، ج٢٠ص٣١٨
(٤) التفسير الكبير ج٣٢ص٦٢
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص١٠٨
(٦) معجم مقاييس اللغة ،مادة(نقع) .
(٧) لسان العرب ،مادة (نقع)
(٨) الكشاف ،ج٢ص١٣٧٣
(٩) التحرير والتنوير ص٣٣٠
(١٠) الكشاف ج ٢ ص١٣٧٣

ثانياً :دلالات النسق الثاني

تعد جملة جواب القسم محور سورة العاديات ، فمن أجلها جاء النسق الأول (جملة القسم) تمهيداً وتأكيدا لمعناها الذي يدور حول جانب من جوانب سلوك الإنسان ، وبناء عليها سيجيء النسق الثالث توبيخا واستنكارا لهذا السلوك ، وقد حملت هذه الجملة دلالات لغوية ناسبت تماما دلالات النسقين وعلى النحو الآتي :

١- دلالة القطع والمنع

قال تعالى :**{ إن الإنسان لربه لكنود }** بهذا الخبر المؤكد (لكنود) يبدأ القرآن الكريم رسم صورة الإنسان ، وللكند في اللغة أصل صحيح يذكره ابن فارس في معجمه وهو : "القطع ، يقال كند الحبل يكنده كندا " ولهذا المعنى يرجع كلمة كنود يقول: " والكنود الكفور للنعمة ، وهو من الأول (يعني من القطع) لأنه يكند الشكر ، أي يقطعه "(١)

وقد وردت للكند معان أخرى في كتب اللغة تشير كلها إلى دلالة القطع والمنع فقد جاء في لسان العرب " امرأة كنود : كفور للمواصلة... وأرض كنود لا تنبت شيئا "(٢)

وعلى هذا المعنى دارت أقوال المفسرين وإن اختلفت عباراتهم ، فالكنود عندهم الكفور، وقيل الجحود وقيل العاصي وقيل البخيل ، ويذكرون حديثا رواه أبو إمامة الباهلي عن الرسول (ص) أنه قال (الكنود هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده) ،والحديث يذكره الخليل أيضا في معنى الكنود(٣) .

نلاحظ أن الصفات الواردة في الحديث لهذا الكنود قد جمعت شدة الحرص والنهم مع البخل والغلظة فأكله وحده يدل على أنانيته وحرصه الشديد على طعامه ، وضربه لعبده فيه قسوة قلبه ، أما منعه رفده فيعني البخل ، فهو غير مضياف وغير كريم .

إلا أن الكنود في الآية مقيد بشبه جملة (لربه) ، وفي مجيء كلمة الرب هنا لفتة بلاغية جميلة ، فلم يقل سبحانه إن الإنسان لله لكنود بل قال لربه ، وهنا تكمن فداحة وخطورة هذه الصفة السلوكية ، فمن يكن تصرفه مع الله على هذا النحو : جحوداً وعصياناً ومنعاً للشكر وكفراناً بالنعمة وهو(الرب) فهو مع الناس اشد وأقبح فعلا .

وصار واضحاً بعد هذا لم استحقت هذه الصفة أن يقسم عليها ، فالقرآن الكريم ذكر صفات ذميمة عدة للإنسان منها قوله تعالى : { إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا} المعارج ١٩ – ٢١ . وقوله تعالى عن حمل الأمانة :(وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) الأحزاب: ٧٢ غير أن هذه الصفات كلها وان سبقت بأدوات توكيد إلا إنها لم تسبق بقسم ، ولعل صفة الكنود أقبح تلك الصفات وأشدها سوءً وبغضا عند الله .

ولكن أي رغبة ودافع وراء هذه النفسية الغريبة ؟ لِمَ يقطع الإنسان شكره عن الله مع علمه أنه هو المنعم ؟ والجواب ليس إلا الجشع والنهم المادي ، فلا عجب أن تكون الصفة المقسم بها هي العَدْو والإغارة ، إنه عَدْو الإنسان من أجل إشباع جوعه المادي والنفسي حتى أنساه شكر الله وصيره كنوداً جحوداً.

٢- دلالة الإقرار والاعتراف (إظهار الحقيقة)

قال تعالى:**{ وإنه على ذلك لشهيد }**

بدءً فإن في الضمير (الهاء) قولين ، الأول: إنه عائد إلى الإنسان : أي يشهد على نفسه بكنوده لظهور أثره عليه(٤) والثاني: إنه يعود إلى الله " ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عن المعاصي من حيث أنه يحصي عليه أعماله "(٥) ويرجح الطباطبائي عودة الضمير على الإنسان تساوقاً مع ما بعده وهو قوله تعالى: { وإنه لحب الخير لشديد} يقول :" فالمعنى وإن الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية في معنى قوله (بل الإنسان على نفسه بصيرة)"(٦)

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (كند)

(٢) لسان العرب مادة (كند)

(٣) ينظر معجم العين ،الخليل بن أحمد الفراهيدي ،ج٥ص٣٣١و الجامع لأحكام القرآن ج٢٠ص١٠٩و التفسير الكبير ج٣٢ص٦٤و الميزان ج٢٠ص٣١٨

(٤) ينظر الكشاف ج٢ ص١٣٧٣ والجامع لأحكام القرآن ج٢٠ص١١ والتحرير والتنوير ص٢٣٢

(٥) التفسير الكبير ج٣٢ص٦٤

(٦) الميزان ج٢٠ ص ٣١٩ و الآية في سورة القيامة آية ١٤

والشهادة: إقرار واعتراف، والإقرار: إظهار للحقيقة، فإن كانت هذه الشهادة في الدنيا فذلك لظهور آثار الكند على هذا الإنسان فالخلق السيئ لا يمكنه إلا أن يظهر بوضوح على صاحبه مهما حاول أن يواري خصاله السيئة عن الناس ، وإن كانت الشهادة في الآخرة فذلك لأن كل جزء منه سيشهد عليه رغماً عنه لقوله تعالى:{ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون } النور: ٢٤

وفي كلا الحالتين فدلالة الإظهار بينة ، وهي دلالة مرت علينا في جملة القسم ،فكما توري الخيول بحوافرها الشرر وهي تعدو للإغارة ،كذلك يوري الكنود بنفسيته الجشعة خلقه السيئ فيظهر شاهداً عليه ، فهذا تناسب بديع .

٣- دلالة الانكباب على الدنيا (تجاوز في حب الخير)

بقيت صورة واحدة لهذا الكنود يرسمها قوله تعالى: **{ وإنه لحب الخير لشديد }** وهذه صفة نفسية تقابل صفة الكنود ، ففي الحين الذي يكون فيه الإنسان ناسياً نعمة الله عليه ناكراً لها نراه أشد ما يكون حباً في هذه النعمة .

أما الخير فقيل فيه أنه المال وأن الله تعالى أسماه خيراً "لأن الناس يسمونه خيراً في الدنيا وعسى أن يكون خبيثاً"(١) ويذكر الزمخشري أنه مأخوذ من قوله تعالى : (أن ترك خيرا الوصية) (٢)

وتسمية المال بالخير فيه لطيفة من لطائف القرآن الكريم في التعبير ، فهو يذكّر هذا الكنود بنعمة الله ومنافعه التي هي خير له ، وكيف أنه نسى هذه النعمة فراح يبخل بها على غيره .

غير أن حب المال بحد ذاته ليس أمراً مذموماً بل المذموم الانكباب على هذا المال والبخل به ، ولذا قال سبحانه (لشديد) ، وفي تفسير الشدة قولان:

أحدهما ما نقله الفرّاء عن الكلبي وهو قوله: البخيل ، وإليه ذهب معظم المفسرين(٣) و قال أبو عبيدة: "يقال للبخيل شديد ومتشدد، قال طرفة :

أرى الموت يعتام النفوس ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد "(٤)

أما الآخر فإنه : قوي ، ذكره الفرّاء عن بعضهم وقال أن المعنى أن يكون "و إنه للخير لشديد الحب أي قوي الحب "(٥) فجعل الشدة هنا بمعنى القوة وتبعه الزمخشري في هذا التفسير وقال " وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس"(٦)

وتبقى لفظة (شديد)هنا أبلغ في تصوير قوة حب المال من أي لفظة سواها ، لأنها دلالة الحرص والبخل والركض وراء المال حلالاً أو حراماً ، لأن من يحب المال بهذه القوة لا يهمه من أين يجنيه وهي مناسبة تماما لنفسية الكنود الذي يجحد فضل الله ويمنع الخير عن الناس .

ثالثاً :دلالات النسق الثالث

ما زالت شبكة الدلالات تمد خيوطها في نمو رغم انتهاء جملة القسم وجوابه ، ففي هذا النسق نلاحظ حضوراً للدلالات السابقة مع زيادة دلالات جديدة وعلى النحو الآتي :

١- دلالة البعثرة والقلب والإخراج:

قال تعالى : { أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور }

يأتي الدال (بعثر) حاملا دلالتي الإثارة والاستخراج السابقتين مع دلالة جديدة هي القلب ،فقد جاء في لسان العرب " بعثر الشيء فرّقه ، بعثر التراب والمتاع : قلبه ، بعثرت الشيء و بحثرته إذا استخرجته وكشفته. وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : إذا بعثر ما في القبور، أثير وأخرج . قال : وتقول بعثرت حوضي أي هدمته وجعلت أسفله أعلاه "(٧)

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،الطبري ج٣ص ٢٧٩وينظر : معاني القرآن ،الفراء ج٣ص ٢٨٥

(٢) الكشاف ج٢ص١٣٧٣والآية في سورة البقرة :١٨٠

(٣) ينظر معاني القرآن ج٣ص٢٨٥،بيان إعجاز القرآن ص٤٠،الكشاف ج٢ص١٣٧٣

(٤) مجاز القرآن ،أبو عبيدة ج٢ص١١٥والبيت في ديوان طرفة بن العبد ص٣١.

(٥) معاني القرآن ج٣ص٢٨٥

(٦) الكشاف ج٢ص١٣٧٣

(٧) لسان العرب مادة(بعثر)

فالبعثرة إذن عملية تفريق وتبديد وقلب الشيء بعضه على بعض ،وهو مشهد عنيف مثير ، بعثر ما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ المثير[١] ، وبما يحويه معنى البعثرة من إثارة للغبار، وجلبة تذكرنا بجلبة الخيل المثيرة للنقع .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا اللفظ قد ورد في القرآن الكريم في موضع آخر وهو مقترن بالقبور أيضا قال تعالى: { وإذا القبور بعثرت } الانفطار: ٤ . غير أن البعثرة هنا لم تجعل للقبور بل لما في القبور " وما في القبور الأجساد "[٢] فالمقصود بالبعثرة هنا ليست بعثرة القبور ، بل بعثرة هذه الأجساد التي فيها ، وما في الأجساد هي الصدور ، وما في الصدور هي الأعمال التي يريد الله تحصيلها وتمييزها، ومشهد التحصيل هو آخر مشهد من مشاهد السورة الكريمة .

٢- دلالة التحصيل والتمييز:

قال ابن فارس في مقاييس اللغة : " الحاء والصاد واللام أصل واحد منقاس : وهو جمع الشيء ، ولذلك سميت حوصلة الطائر لأنه يجمع فيها " وأضاف : "أن أناساً من أهل اللغة زعموا أن أصل التحصيل استخراج الذهب والفضة من الحجر أو من تراب المعدن "[٣] .

وجاء في لسان العرب : "الحاصل في كل شيء :ما بقي وثبت وذهب ما سواه ، يكون من الحساب والأعمال ونحوها .... وقال الفراء في قوله تعالى : وحصل ما في الصدور :أي بيّن وقال غيره : ميّز وقال غيرهم جمع ، وتحصيل الشيء تجمع وتثبت "[٤]

وقد جاءت لفظة (حصل) مناسبة لموضوع السورة وهو كند الإنسان وحبه الشديد للمال ، لأن من دلالاتها كما تبين لنا هو الجمع ، فذاك جمع للمال وهذا جمع لما في القلوب من أعمال ،وهذه مقابلة بديعة طرحت ثنائية عظيمة بين ما يجمعه الإنسان في الدنيا وبين ما يجمعه الله من الإنسان في الآخرة ، وكأنها رسالة بليغة لهذا الكنود مفادها : لا تملأ يديك بالمال وتجعل قلبك مفلسا من الأعمال.

ولا يفوتنا أن نذكر المقابلة البديعة بين لفظتي القبور والصدور ، فكلاهما ينطوي على ظلمة ، ظلمة القبر التي تقابل ظلمة صدر الكنود ، ثم لننظر إلى هذا الترتيب البليغ، إذ قدم بعثرة القبور على تحصيل الصدور ، لأن الصدور داخل الأجساد والأجساد داخل القبور وكأنه قبر داخل قبر ولذا تأتي البعثرة على النحو المذكور .

الناتج الدلالي لسورة العاديات :

بما سبق تقديمه من دلالات تكون شبكة العلاقات الدلالية قد نسجت خيوطها بين الأنساق الثلاثة حول بؤرة مركزية تمثلها هذه المرة جملة القسم وهي جملة لا تقل أهمية عن جملة جواب القسم بل أن الشأن في القسَم الظاهر إنه " يقصد لفظ المقسم به ويراد كما يقصد جوابه .. لأمور بلاغية "[٥] وفي سورة العاديات قدّم القسم دلالات تنامت بامتداد نحو عمق السورة مشكلة حلقات واحدة تلو الأخرى حتى تصل إلى خاتمة السورة :**{ إن ربهم بهم يومئذ لخبير }** التي أحاطت الدلالات جميعها بعلم الله وخبرته.

ونستطيع أن نوضح أثر القسم في بناء دلالات السورة من خلال المخطط الآتي :

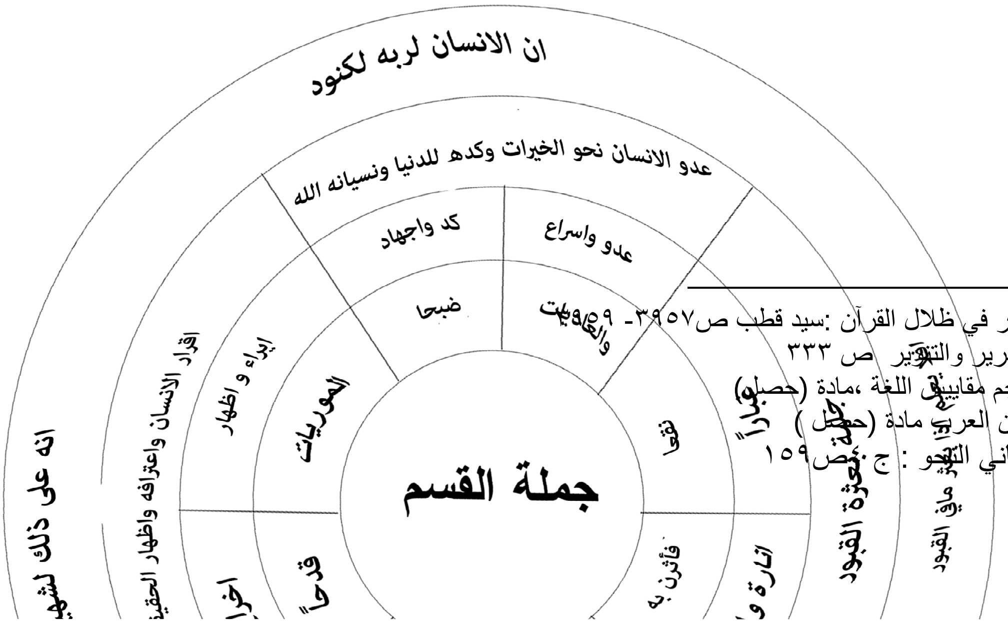

---

[١] ينظر في ظلال القرآن :سيد قطب ص٣٩٥٧- ٣٩٥٩

[٢] التحرير والتنوير ص ٣٣٣

[٣] معجم مقاييس اللغة ،مادة (حصل)

[٤] لسان العرب مادة (حصل)

[٥] معاني النحو : ج ٤ص ١٥٩

المبحث الثالث :

القسم الظاهر وأثره في المستوى الصوتي (الإيقاعي)

تعريف الإيقاع :

يذهب أبو حيان التوحيدي في تعريف الإيقاع إلى أنه " فعل يكيل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة متعادلة "[١]

والإيقاع كذلك " تواتر الحركة النغمية وتكرار الوقوع المطرد للنبرة في الإلقاء وتدفق الكلام المنظوم والمنثور عن طريق تآلف مختصر العناصر الموسيقية "[٢]

فالإيقاع بهذا الذي ذكر نلفيه يقوم على مبدأ التوافق الحركي والنغمي وفق انسجام، وهو بهذا يؤول إلى " تلك الفاعلية التي تنقل إلى المتلقي ذي الحساسية المرهفة الشعور بوجود حركة داخلية ذات حيوية متنامية تمنح التتابع الحركي وحدة نغمية عميقة "[٣]

ومن ثم لا عجب أن يلحظه كل إنسان في فنونه التعبيرية شعراً كانت أم نثراً ، ومنه كلام العرب الذي إذا استمعنا إليه متصلاً أحسسنا بتشابه كميات المسافات بين نبر وآخر أو بتقاربهما وهو ما يمنح الأذن إحساساً بالإيقاع ،والعرب أمة شعر، والإيقاع أهم مميزاته ، لذا نقرأ عنهم تميزهم بآذان موسيقية وإحساس مرهف جعلهم بفطرتهم يحسون بموسيقى الكلام أياً كان نوعه[٤].

الإيقاع في القرآن الكريم :

لقد" انصبت عناية القرآن العظيم بالاهتمام في إذكاء حرارة الكلمة عند العرب ، وتوهج العبارة في منظار حياتهم ، وحدَبَ البيان القرآني على تحقيق موسيقى اللفظ في جمله ، وتناغم الحروف في تركيبه ، وتعادل الوحدات الصوتية في مقاطعه ، فكانت مخارج الكلمات متوازنة النبرات ، وتراكيب البيان متلائمة الأصوات ، فاختار لكل حالة مرادة ألفاظها الخاصة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها ، فجاء كل لفظ متناسبا مع صورته الذهنية من وجه، ومع دلالته السمعية من وجه آخر" [٥]

ولا يوجد شك يكتنف المتفحص للمتن القرآني العظيم على أن نظم القرآن يقوم جمال نسجه على الإيقاع ، لكن الإيقاع في القرآن" ليس بالعمل الفني المقصود لذاته ، إنها وسيلة لا غير سخرها الخطاب القرآني العظيم بغية تأدية الغرض الديني المنشود "[٦]

---

[١] المقابسات ،أبو حيان التوحيدي ص٣١٠

[٢] المعجم المفصل في الأدب ، محمد التو نجي ،ج١ص١٤٩

[٣] في البنية الإيقاعية للشعر العربي،كمال أبو ديب ، ص ٢٣٠

[٤] ينظر الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى ،عيد محمد شبايك ص٧٠

[٥] الصوت اللغوي في القرآن الكريم د. محمد حسين الصغير ص٦٢

[٦] الإيقاعية القرآنية في دراسات المحدثين المعاصرين ،د.محمد حرير،مجلة الموقف الأدبي ،العدد٤١٢\٢٠٠٥

الإيقاع في سورة العاديات :

إذا ما أردنا الوقوف في مبحثنا هذا على أثر أسلوب القسم الظاهر بالمستوى الإيقاعي لسورة العاديات، لابد أن نعلم أننا أمام سورة برَزَ الإيقاع الموسيقي فيها بشكل كبير ومؤثر بل" أن المدار في هذه السورة قائم بشكل جلي ومسموع على خاصية الإيقاع "(١)

وقد حقق أسلوب القسم بطبيعته التركيبية والدلالية القدر الأكبر من هذا الإيقاع كما سيتبين ذلك من خلال الدراسة الآتية :

أولاً : إيقاع النسق الأول

تمثل جملة القسم النغمة الإيقاعية الأولى للسورة التي تكسبها طابع الحركة السريعة المتوالية ، ولو أنعمنا النظر في مفردات هذه الجملة وجدنا فيها أكثر من عنصر واحد يجعل من الإيقاع الداخلي للكلمة أكثر تأثيراً في النفس .

فلننظر أولاً إلى اللفظة الأولى (**العاديات**) إن أهم ما تمتاز به هو هذه الألف الممدودة التي تكررت مرتين ، والتي تحتاج عند قراءتها إلى مد الصوت وقد أعطت اللفظة بعداً صوتياً يتناسب ذهنياً مع حركة مد الضبعين (حركة الخيل) قبل أن تضرب بحوافرها الأرض .

فما تلبث أن تنطق بالحرف الأخير من هذه اللفظة حتى تأتيك اللفظة المجاورة (**ضبحا**) لفظة قصيرة من ثلاثة أحرف منتهية بألف الإطلاق مسبوقا بحرف حلقي ثقيل وهو الحاء الذي يحتاج منك عند النطق به إلى مجهود عضلي ، لأن الأصوات تختلف في نطقها من صوت إلى آخر " فما يخرج من الحلق يتطلب جهدا أكبر مما يخرج من الفم أو الشفتين "(٢) لقد أعطت هذه اللفظة بحرفها الحلقي الثقيل وقصرها ، نغمة وقع الحافر، وشكلت مع العاديات النغمة الإيقاعية الأولى التي تكررت على التوالي .

ولكن لنتوقف هنا ولنحاول أن نعيد قراءة هذا المقطع بدون حرف الواو- وهي واو القسم – بهذا الشكل (العاديات ضبحا) ، نجد أنفسنا نحتاج إلى النطق بالهمزة في بداية الكلمة ، لأن أل التعريف غير مسبوقة هنا بكلمة فستكون همزتها همزة قطع ، والهمزة حرف حلقي ثقيل فهي " من أشق الحروف و أوعرها حين النطق ، لأن مخرجها فتحة المزمار ، ويحس المرء حين ينطق بها كأنه يختنق"(٣) وهذا الثقل لا يتناسب مع دلالة السرعة ، سرعة الانطلاق ،أما مع حرف القسم الواو فأنت لا تشعر هنا بأي ثقل ، بل تجد نفسك مأخوذاً بشكل سريع مع اللفظة دون تلكؤ أو تباطؤ .

تتكرر هذه النغمة بتكرار المقطع الصوتي نفسه من خلال تكرار مقاطع متماثلة متوازية كضربات حوافر الخيل المنتظمة :

والعاديات ضبحا
فالموريات قدحا
فالمغيرات صبحا

نلاحظ أن التوازي ساعد على حدوث هذا الإيقاع المتماثل ، لأن التوازيخاو على طرفي الإيقاع الرئيسين وهما التماثل والاختلاف ، لذا كان التوازي أقصى تمظهرات الإيقاع "(٤).

كما نلاحظ انتهاء المقاطع الثلاث بفاصلة " تقوم على تكرار فونيمي واحد ، وهو الألف ، وهي ألف الإطلاق مع أنها- أي لفظة الفاصلة – تنتهي بتنوين ، أي أنه كان يفترض أن تكون فاصلتها النون لكن لأن اللفظة فاصلة - أي أنها محل التوقف الصوتي – ولأن العرب لا تقف على متحرك عطل اشتغال التنوين ليعمل الألف مكانه "(٥) هذا الألف الذي يفتح أمامك امتداداً من الصوت وكأنك أمام فضاء فسيح تنطلق فيه بلا توقف .

وقد سبق أن ذكرنا أن صيغة المصدر المنصوب يمنح البناء التركيبي والدلالي خاصية الاستقرار - بحسب دلالة الاسم – هذا الاستقرار يجعل من الشعور بالانطلاق أنه انطلاق لا تصاحبه خفة ولا سلاسة ، وهو بذاك تناسق بديع مع حركة الخيول ، فحركتها رغم سرعتها فيها ثقل وزنها ، وفيها شدة ارتطامها بالأرض ، هي ليست كحركة الطيور في السماء .

---

(١) الإيقاعية القرآنية في دراسات المحدثين المعاصرين، مصدر سبق ذكره

(٢) من سمات الأداء في ثقافة العرب الأولين .د.بلقاسم بلعرج بن أحمد ،مجلة التراث العربي ، العدد ٩٨ ٢٠٠٥

(٣) موسيقى الشعر ،إبراهيم أنيس ص٢٢.

(٤) تقنية التوازي في الشعر الحديث . د.عشتار داود محمد،مجلة الموقف الأدبي ،العدد ٤٢١ ٢٠٠٦

(٥) التوازي في القرآن الكريم ص١٣٦.

تواكب هذه المصادر جملة القسم حتى نهايتها ، ولكن بتغيير بسيط في المقطع الصوتي ينسجم مع تغير الصيغة الاسمية إلى الفعلية ، ففي المقطعين الأخيرين اختفت نغمة المد التي صاحبت اسم الفاعل :(عاديات – موريات – مغيرات)، وكأن العدْوَ ، هذا الجري السريع قد انتهى ، وتوسطت الخيول الجمع ليبدأ غبار المعركة بالتصاعد فيصبح الإيقاع كالآتي :

فأثرن به نقعا

فوسطن به جمعا

نلاحظ الاحتفاظ بالحرف الحلقي ، لكنه تحول من الحاء إلى العين (نقعا- جمعا) وهو أكثر ثقلاً في النطق ، ليشترك بذلك الإيقاع مع التركيب والدلالة في رسم المشهد المطلوب .

كل تلك المقاطع مرتبطة بحرف العطف الفاء ، الذي منح المشهد الشعور بالاستمرار والاندفاع قدما بلا توقف ، فالفاء في جملة القسم كسرت حاجز الصمت(١)، فهو يجبرك على التواصل ، وكأنه تواصل مقصود يشدك سريعاً مع حركة الخيل العادية فالمورية فالمغيرة فالمثيرة للنقع فالمتوسطة للجمع .

ثانياً :إيقاع النسق الثاني

تنتهي من النسق الأول ولديك شعور بالحاجة إلى التوقف، توقف بعد عدو وإيراء وإغارة ، توقف للتساؤل عن كل هذا ، ماذا بعد ؟

هنا في بلاغة وإبداع تنحسر بنية الصوت لتبدأ بنية الصمت بالاشتغال ،لتمنحك ما تريد من توقف ، فقد تغير الإيقاع تماما ، وهو بلا شك تغير منسجم مع تغير المشهد كاملاً ففي قوانين الإيقاع ،" إن أي تغير فيه أو تنوع يترتب عليه تغير العاطفة والفكرة ، بل والصورة والإحساس كذلك". (٢)

وقانون التغير- وهو أحد قوانين الإيقاع السبعة –(٣) الذي امتازت به سورة العاديات ، يقوم على إحداث الصدمة عن طريق المفاجأة بأمر جديد يثير الاهتمام على نحو مؤكد. (٤)

وفي جملة جواب القسم ، ولأنها محور السورة ومركز ثقلها نجد هناك أكثر من عامل يجعلنا نتلوها بتأن ، إذ نلاحظ أن الآيات " قد اختلفت في هذا المقطع عن المقطع الذي سبقه في الصورة الأدبية والنظم الموسيقي ، ويلاحظ ذلك بيناً في المفردات المستعملة في الآيات ، ففي حين تكون الآيات في المقطع الأول من السورة الكريمة آيات قصيرة تتكون من كلمتين ، تمتاز بسرعة الإيقاع وضرباته المتتالية ، نجدها في هذا المقطع تزداد طولاً ونفساً "(٥)

فهي أولاً مبدوءة بهمزة قطع مع نون مشددة (إنّ) وهذه البداية مدعاة للفت الانتباه لأمر مهم وثانيا انتهاء جملة القسم بفاصلة فونيمية تقوم على الدال : كنود – شهيد – شديد

" إذ تعد الدال من حروف القلقلة التي تنطق بشدة وإذا ما وقف عليها تترك صوتاً يسمى بالقلقلة"(٦)

وهذه القلقلة في النطق لا تدع أمامك مجالاً للإسراع بل تجبرك على التأني للتأمل .

وأخيرا حروف اللين – الواو والياء – وكل ذلك يمنحك زيادة في الزمن الصوتي وكأن طول الآية جاء طبيعياً ليدع للإنسان وقتاً أطول للتأمل والتفكير .

ثالثاً : إيقاع النسق الثالث :

يتغير الإيقاع ، فتتغير الفكرة والدلالة ، فبعد أن مر الإيقاع بمرحلة هدوء ، يعود في هذا النسق إلى الحركة والصخب ، وهي حركة مدهشة صورت مشاهد مروعة ، إيقاع فيه خشونة تناسب خشونة التوبيخ (أفلا يعلم) بهذا الاستفهام التوبيخي بدأ النسق الثالث، فأي ألفاظ سيستخدم القرآن الكريم وأي أحرف سيختار ؟

إن أول لفظة تطلع علينا بعد أسلوب التوبيخ هي لفظة (بعثر) والبعثرة كما مر بنا تفريق وتبديد وقلب الشيء بعضه على بعض ، فلننظر كيف ناسبت أحرف الكلمة دلالتها، فهذه اللفظة تتميز " بإيقاعها الخاص وما فيها من حروف ، الباء الانفجاري ، والعين التي تأتي من آخر الحلق ، والثاء الثقيلة والراء

---

(١) ينطوي الإيقاع النصي على قضيتين أساسيتين : إيقاع البياض وإيقاع السواد ، أو ما يسمى بإيقاع الصمت وإيقاع الصوت ، يقوم إيقاع السواد على الملفوظ اللساني في حين يعني البياض بياض الصمت عن نطق الحروف . ينظر عضوية الموسيقى في النص الشعري ،د.عبد الفتاح صالح نافع ص ٥٨

(٢) إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ،محمد العبد ص٣٣

(٣) تضم قوانين الإيقاع فضلاً عن التغير : النظام والتساوي والتوازي والتلازم والتوازن والتكرار . ينظر الأسس الجمالية في النقد العربي ، د.عز الدين إسماعيل ص١٠٢

(٤) ينظر الإحساس بالجمال ،جورج سانتيانا ،ص١١٦.

(٥) الوحدة الفنية في سورة العاديات ، د.كريم الوائلي بحث منشور على الموقع الإلكتروني www.mnaabr.com

(٦) التوازي في القرآن الكريم ص ١٥٣

التي يرتطم اللسان عند النطق بها بالحنك الأعلى عدّة مرات ، فاستخدام هذه اللفظة بجرسها الخاص في هذا المشهد بالذات أعطى للصورة مشهداً أعنف "[١]

ثم تأتي لفظة (قبور) وحروفها جميعا تدل على ظلمة دلالتها ، بل حتى حركاتها ، وللحركات ما للحروف من إيقاع ، فالقاف حرف قلقلة وهو من الحروف التي تمتاز بضخامة الجرس الموسيقي وحركته الضمة وهي أثقل الحركات ، وباء مضمومة أيضا ، ثم الواو الطويلة وأخيرا الراء نفسها التي رأيناها في بعثر .

بعد ذلك في إبداع يختار سبحانه ألفاظا يناسب إيقاعها دلالتها تناسباً تاماً{ حصل ما في الصدور } ثلاث صادات ، الصاد المشدّدة في حصّل وصاد الصدور .

والصاد من أصوات الصفير ، وهذه لها دلالة النغم الصارم ، لأنها تصطك في جهاز السمع فتؤدي (مهمة الإعلان الصريح عن المراد في تأكيد الحقيقة وهي بذلك تعبر عن الشدة حيناً وعن العناية بالأمر حينا آخر"[٢].

والتحصيل : استخراج وإظهار قسري للأعمال من الصدور ، فما أنسب الحرف للمعنى والصوت"في صيغة الإرعاب ، وفي سياق الوعيد ، قد تلمس فيه نزع ما في القلوب من أسرار، واستخراج ما فيها من خفايا دون طواعية من أصحابها "[٣]

والآيتان تنتهيان " بصوت طويل بنغمهِ وإيقاعهِ (قبور ، صدور) وهذا شيء طبيعي يصور الإنسان فاغرا فاه أمام مشهد من البعثرة الهائلة والتحصيل القسري لخفايا الإنسان التي عمل المستحيل من أجل إخفائها "[٤].

أما خاتمة السورة فجاء إيقاعها على النحو الآتي : إن - ربهم - بهم – يومئذ- لخبير

وهو إيقاع كما نلاحظ هادئ مريح للنفس ،أفاد هذا حرف الهاء الذي تكرر مرتين ،" ووجود هائين متقاربتين في الآية توحي لنا بتهدئة النفس بعد الترويع المخيف للذهن بصورته وصخبه"[٥] وحرف الميم الذي تكرر ثلاث مرات بغنته الهادئة ، وكأن الرسالة المقصود إيصالها من خلال أسلوب القسم لا تكتمل إلا بهذه الآية فكند الإنسان وشهادته على نفسه وحبه الشديد للمال كل ذلك يجري بعلم الله ، فاحذر أيها الإنسان الكنود إن الله بك لخبير .

وهذه الآية الأخيرة كما رأينا قد ناسبت جملة جواب القسم بتركيبتها (أسلوب التوكيد نفسه) وناسبتها دلالة لأن المعني في الضمير (بهم) هو الإنسان نفسه كما مر بنا. كذلك ناسبتها هنا إيقاعاً لتكتمل بها رسالة القسم وقد تضافر التركيب مع الدلالة والإيقاع على إيصالها .

---

[١] الوحدة الفنية في سورة العاديات بحث سبق ذكره

[٢] الصوت اللغوي في القرآن الكريم ص٦٣

[٣] المصدر السابق نفسه

[٤] الوحدة الفنية في سورة العاديات ، بحث سبق ذكره .

[٥] المصدر السابق نفسه .

الخاتمة :

تبين لنا بعد الدراسة التحليلية لمستويات النص القرآني لسورة العاديات (التركيبي والدلالي والإيقاعي) أن السورة ترتكز في بنائها النصي على القسم الظاهر الذي افتتحت به .

فتركيبياً ربطت جملة جواب القسم أجزاء السورة بعضها ببعض ، وشدّتها إليها بعلاقات نحوية كعلاقة التوكيد ، وعلاقة الاستفهام الإنكاري ،وعلاقة عائدية الضمير، فقَسَم مؤكد لجوابه ، واستفهام توبيخي منكر للجواب ، وخاتمة تعود ضمائرها على ذلك الجواب .

أما دلالياً فقد شكلت جملة القسَم (المقسم به) قاعدة دلالية بُنيت عليها سائر دلالات السورة ، فقد وجدنا على سبيل المثال دلالة الإخراج والإظهار التي حملها الدالان (الموريات ـ قدحا) متمثلة في النسق الثاني في قوله تعالى :{ إن الإنسان لربه لكنود } ،فإقرار الإنسان واعترافه إنما هو إظهار للحقيقة ، ثم وجدنا الدلالة ذاتها في النسق الثالث في الدال (بعثر) إذ أن البعثرة إظهار وإخراج وقلب.وكذلك الدالين (المغيرات ـ صبحا) ،فالإغارة أخذ قسري لمال أو غنيمة أو نصر وهي الدلالة عينها في قوله تعالى : {وحصّل ما في الصدور}فالتحصيل انتزاع قسري للأعمال .

وهكذا الشأن مع بقية دلالات جملة القسَم إذ حمل كل دال على التوالي دلالة امتدت إلى عمق السورة.

أما إيقاعيا فوجدنا أن القَسَم بطبيعته التركيبية (واو القسم ـ الفاء الرابطة ـ المقاطع القصيرة) وبدلالاته (جري ـ إيراء ـ إغارة ـ إثارة للغبار) كل هذا احتاج إلى نغم صاخب سريع ، وهذا النغم كان عاملاً مؤثراً في لفت الانتباه ومن ثمَّ تشويق السامع للمضي قدماً مع النغَم حتى آخر آية من السورة حيث يستقر هناك الإيقاع هادئاً .

وأخيراً نقول أن السورة كلها قد وظفت لإيصال الرسالة التي جاء أسلوب القَسَم من أجلها تركيباً وإيقاعاً ودلالة .

مصادر البحث

١- القرآن الكريم
٢- إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي – محمد العبد – دار المعارف – مصر ط١ - ١٩٨٨م
٣- الإتقان في علوم القرآن : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١هـ) – عالم الكتب – بيروت (د . ت)
٤- الإحساس بالجمال : جورج سانتيانا – ترجمة مصطفى بدوي – مكتبة الإنجلو المصرية (د . ت)
٥- الأسس الجمالية في النقد العربي : د. عز الدين إسماعيل – دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٢م
٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم : ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن احمد) – منشورات ناصر خسرو – طهران – إيران .
٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر ت١٨٥هـ)– دار صادر – بيروت ط١ - ٢٠٠١ م .
٨- بناء الأسلوب في شعر الحداثة : د. محمد عبد المطلب ، القاهرة ط١ - ١٩٨٨م.
٩- بيان إعجاز القرآن : الخطابي (أبو سليمان أحمد بن محمد بن (إبراهيم ت ٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر – (د . ت)
١٠- التبيان في أقسام القرآن : ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر)، تصحيح محمد حامد الفقي ، مطبعة حجازي – القاهرة ط١ (د . ت)
١١- التحرير والتنوير : محمد الطاهر ابن عاشور – منشورات دار الكتب الشرقية – تونس – (د . ت) .
١٢- التعبير القرآني : فاضل صالح السامرائي – مؤسسة العطار الثقافية – العراق – النجف الأشرف
١٣- تفسير ابن عربي : محيي الدين بن عربي ت٦٣٨هـ- دار صادر – بيروت ط٣ – ٢٠٠٧م
١٤- التفسير الكبير : الفخر الرازي (فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين ت٦٠٦هـ) منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط١ ٢٠٠٠م
١٥- تفسير القرآن العظيم ابن كثير – مكتبة دار التراث – القاهرة – (د. ت)

١٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ) – دار الفكر – بيروت – لبنان – ١٩٨٨م

١٧- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت٦٧١ هـ) تحقيق سالم مصطفى البدري – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية – بيروت - لبنان ط١ - ٢٠٠٠م

١٨- دلائل الإعجاز في علم المعاني : الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ت ٤٧٢ هـ) تصحيح محمد عبده ، تعليق محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت – لبنان ط٣ - ٢٠٠١ م

١٩- شرح المفصل : ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي النحوي) إدارة االمطبعة المنيرية ، القاهرة (د . ت)

٢٠- الصوت اللغوي في القرآن الكريم – د. محمد حسين علي الصغير – مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث الإسلامية – ١٩٩٨ م

٢١- عضوية الموسيقى في النص الشعري : د . عبد الفتاح صالح نافع ، مكتبة المنار ، الزرقاء – الأردن ١٩٨٥ م

٢٢- علم الدلالة : بير جيرو – ترجمة : انطوان أبو زيد – عويدات – بيروت - ط١ – ١٩٨٦م

٢٣- العين : الفراهيدي (أبو عبد الرحمن الخليل ابن أحمد ، ت ١٧٥ هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ،دار الرشيد للنشر -١٩٨١م (د.ت)

٢٤- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى:عيد محمد شبايك –دار حراء- القاهرة-ط١-١٩٩٣م.

٢٥- فهم القرآن الحكيم :د.محمد عابد الجابري ،مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان- ط١- ٢٠٠٨م

٢٦- في البنية الإيقاعية للشعر العربي :كمال أبو ديب – دار العلم للملايين – بيروت – ط٢- ١٩٨١م.

٢٧- في ظلال القرآن : سيد قطب دار الشروق – القاهرة – مصر ط٣٥ – ٢٠٠٥م

٢٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر ، ت٥٣٨هـ) ، دار إحياء التراث العربي لبنان ط١ - ٢٠٠٣ م

٢٩- لسان العرب : ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) ، دار صادر – بيروت ط١ - ٢٠٠٠ م

٣٠- مجاز القرآن : أبو عبيدة (معمر بن مثنى التميمي ، ت ٢١٠ هـ) ، تعليق محمد فؤاد سزكين ، مطبعة السعادة – مصر ، ط١ ١٩٦٢ م

٣١- مختار الصحاح : الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ت ٦٦٦ هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان – ١٩٨١م

٣٢- معاني القرآن : الفرّاء (أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧هـ) عالم الكتب – بيروت ط٢ - ١٩٨٠م

٣٣- معاني النحو : د . فاضل صالح السامرائي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ط١- ٢٠٠٧م

٣٤- معجم متن اللغة : أحمد رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٥٩م

٣٥- المعجم المفصل في الأدب : محمد التونجي ، دار الكتب العلمية – بيروت ط٢ - م١٩٩٩

٣٦- معجم مقاييس اللغة : ابن فارس (أبو الحسين أحمد ت٣٩٥ هـ)تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٩م

٣٧- المقابسات : أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس) تحقيق حسن السندوبي المطبعة الرحمانية – مصر – ط١ - ١٩٢٩م

٣٨- موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٢م

٣٩- الميزان في تفسير القرآن ، الطباطبائي (محمد حسين) ، تحقيق أياد باقر سلمان – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ط١ ٢٠٠٦م

البحوث والرسائل الجامعية

١- الإيقاعية القرآنية في دراسات المحدثين المعاصرين :د.محمد حرير- مجلة الموقف الأدبي – إصدار إتحاد الكتاب العرب – دمشق – العدد ٤٢١ آب ٢٠٠٥م

٢- بنية التقابل وأثرها في توليد النص القرآني – سورة الليل نموذجاً - :د.فايز القرعان، جامعة اليرموك الإربد -الأردن – بحث منشور على الموقع الإلكتروني www.odabasham.com

٣- تقنية التوازي في الشعر الحديث : د، عشتار داود محمد – مجلة الموقف الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – دمشق العدد ٤٢١- أيار ٢٠٠٦م

٤- الجمل المتوازية عند طه حسين – دراسة في أحلام شهرزاد -: رجب عبد الجواد ، مجلة علوم اللغة – العدد ٤ – ٢٠٠٠م

٥- الجمل المتوازية في ديوان أبي القاسم الشابي (دراسة نحوية دلالية) : د. محمود محمد سليمان علي الجعيدي – جامعة المنصورة . بحث منشور على الموقع الألكتروني: www.tunisia-sat.com

٦- من سمات الأداء في ثقافة العرب الأولين (الإيقاع) :- د . بلقاسم بلعرج بن احمد – مجلة التراث العربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – العدد ٩٨ – حزيران ٢٠٠٥م

٧- الوحدة الفنية في سورة العاديات : د . كريم الوائلي ، بحث منشور على الموقع الإلكتروني : www.mnaabr.com

٨- التوازي في القرآن الكريم : وداد مكاوي حمود الشمري – رسالة دكتوراه – جامعة بغداد – كلية التربية للبنات – تشرين أول ٢٠٠١م

The method of substantive Oath and Its Affected in Structuring and Provisions of Holykuran Aladeyat (Chapter of Holykuran) (Sample)

Afraah Dheiab Saleh
Baghdad University – International Studying Center

Abstract:

Many chapters of Holy Kuran and one of them –Aladeyat- has been started with substantive oath and this called (phonetic oath) that are signified from oath letter or on of its phonetics so the question is the oath in the beginning of the chapter has effect in structuring general provisions of the chapter on this question built the idea of this research.

The purpose of this research is to explore the idea & occasions for opening the substantive oath and not only to find the answers.

So we chose –Aladeyat Chapter- by its significance & structural nature consist of three coordinators and conclusions and we started with analystic study for the three level of this chapters I mean (structural, significance & rhythmic).

And this distributed on three sections.

We analyze on the first section the structure of three significance (oath sentence) that represent the first coordinator (answer oath sentence) which represent second coordinator then the rest of sentence chapter and this is the third coordinator and last the conclusion.

So we found that (answers oath sentence) represent chapter nucleus that its straightened all the coordinators with grammatical relations called: confirmation relation & unknown interrogation relation & belonging pronoun relations) one of them answers confirmed and negative questioned answer or conclusion belong by its pronoun & significant for that answers.

At the second section we present a brief display for coordinators and significant follow one another and after displaying analyzing and joint each significant with each oather we found that oath sentence make a significant base buld up and extend up to the deep of the chapter, so the significant of other coordinator is a branch of these significants that make us draw a diagram for a circle in center is (oath sentence) accord in coordination and consistent with significance of the chapter.

Lastly and through our study for the rhythmic level of the chapter's syllable we found that the rhythm of oath sentence which represent the first ryhtheic tone for the chapter has been important

factor to attract the audience and preparing to receive the message that come for (the method of oath).